الخطبة الثامنة والسبعون

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 10/ 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، وبعد:

1. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: 2/ 281].

يحذرنا الله سبحانه في هذه الآية من اليوم الذي سوف نرجع فيه إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا اليوم هو المدار الذي تدور عليه حياتنا، فكل ما في دنيانا وكل أعمالنا وكل ماقدمناه وفعلناه ونويناه وكل ما تركناه وكل ما أسسناه مآله إلى ذلك اليوم الذي سنقابل فيه ربنا عز وجل، والذي يقول فيه أننا سنوفى أجرنا كاملاً على ما كسبنا في حياتنا، وكَسْبُنا هذا قد يكون خيراً وقد يكون غير ذلك. والأجر الكامل الذي سوف نتقاضاه ليس فيه ظلم وليس فيه إجحاف وذلك لأن الله عادل، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: 22/ 10]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: 78/ 40]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: 82/ 4-5]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 21/ 47].

فالله سبحانه وتعالى تعهد بالحساب الكامل، وبالعدل الكامل، فلا تُظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل سبحانه وتعالى. هذا التحذير الإلهي بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ اتقوا ذلك اليوم وخافوه وترقبوه، وانظروا

إليه في جميع أعمالكم وحركاتكم وسكناتكم؛ لأنه يوم الجزاء، يوم الملاقاة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: 3/ 30].

2. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قوله: «إنها آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وإنَّ رسول الله ﷺ عاش بعدها تسع ليال ثم توفاه الله تعالى» رواه أبو حاتم، وأخرج البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه: «أنها آخر آية نزلت»، فهذه الآية الجليلة تعطي الاهتمام وتوقظ الأفهام وترشد الأنام إلى النقطة الأساسية في الحياة كلها؛ وهي لحظة الرجوع إلى الله، وهذا أمر لا مفر منه لأحد، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: 3/ 25]. إنه يوم لا ريب فيه ولا مفر منه، ولا مناص منه لأحد كائنًا من كان.

3. الاهتمام بلحظة الرجوع هذه. لا بد لها من إيمان، لا تأتي هكذا من تلقاء نفسها؛ الإيمان بها يتطلب الإيمان بالله والإيمان برسوله ﷺ. يتطلب الإيمان بما أخبرنا به الله تعالى، وبما أخبرنا به رسول الله ﷺ تمامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: 7/ 174].

يفصل ربنا بين صفات القيامة، وصفات الحشر، وفي الصراط، وفي الجنة، وفي النار، وآيات تِلْوَ آيات وتحذيرات تِلْوَ تحذيرات حتى نرجع إلى الله، ونرجع إلى آياته، ونرجع إلى رسول الله ﷺ، ونرجع إلى أحاديثه لنتعظ ونعتبر ونخاف ونتوب ونعمل صالحًا. قال تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: 6/ 36]، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ﴾ [النور: 24/ 64].

وينبهنا الله سبحانه وتعالى مرات ومرات، أن كل ما في السموات والأرض له، وإليه يرجع الأمر كله، وكل شيء راجع إليه، كل هذا دلالات لنا لننتبه إلى ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 2/ 245]، وقال تعالى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: 10/ 56]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: 29/ 57].

4. فمرجوعك يا أخي إلى الله. خُلقت لتعمل ثم تعود إلى خالقك وبارئك فيجازيك. خُلقت لتعمل بما أعطاك الله من خير ومن شر، خُلقت لتُمْتَحن. خُلقت لتبرهن لنفسك على نفسك، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: 21/ 35]، فما آتاك الله من جاه ومال وسلطة وفهم وعلم ومنزلة وعلو درجات وأولاد وعقارات، وكل ما تحسبه من الخير ... فهو فتنة وامتحان من الله تعالى، كيف تتصرف فيه؟ وكيف تمضي فيه؟ هل حَكَّمْتَ شرع الله في أعمالك وأقوالك؟ هل كنت صادقاً في نواياك؟ هل وهل وألف هل ستجيب عليها في طريقة حياتك ومنهجك وسلوكك، وستلقى الله لا محالة ليجازيك بما كسبت خيراً فخير، وشراً فشر، وكذلك ما آتاك الله من فقر وأمراض وابتلاءات ومصائب وما إلى ذلك مما تحسبه شراً وسوء طالع ... كيف تصرفت فيه؟ كيف كان نهجك؟ كيف كانت ردود أفعالك؟ أكانت مطابقة للشريعة أم مخالفة؟ ستلقى الله سبحانه بما عملت وبما أقررت وبما أسست وبما علمت وبما أثّرت، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: 36/ 12]، كل هذا سَيُعرض على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية: 45/ 28-31].

5. لذلك لما تكلمت عن الإيمان، كان الإيمان المرحلة الأولى والدرجة الأولى التي يجب أن يقطعها الإنسان حتى يصل إلى الاهتمام بلحظة الرجوع، لذلك قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 47/ 19].

يجب أن تعلم علم اليقين، وعلم اليقين هذا يوصلك إلى مرحلة المراقبة، ومرحلة المراقبة هذه تتجلى في سؤال جبريل عليه السلام حين قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه

مسلم. فالمراقبة هنا أنك تعلم علم اليقين بأن الله يراقبك ويعلم خفايا نفسك، وتتصور تصوراً كاملاً، وتؤمن إيماناً كاملاً، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 4/ 1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: 33/ 52]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 50/ 18]، ثم المراقبة الثانية: وهي أنك تراقب الله سبحانه في كل حركاتك وسكناتك. إذا وصلت إلى هذه الدرجة فكيف بك وبالسيئات، فإنك لن تفعلها، وكيف بك وبنية السوء، فإنك لن تفعلها، لأن الله يراقبك، وأنت تراقب الله في حسن أعمالك وفي حسن أقوالك. وتحتسب أجرك عند الله في كل ما تعمل لأن نظرك وهدفك واهتمامك في يوم اللقاء وفي يوم الجمع وفي يوم التغابن ويوم الفصل ويوم الرجوع إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: 59/ 18-19].

ويخوفنا رسول الله ﷺ ويوضح لنا القضية غاية الوضوح، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إني رسول الله إليكم، اعلموا أن المعاد إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإنه إقامة لا ظعن، وخلود لا موت، في أجساد لا تموت» رواه البزار ورجاله وُثِّقُوا، وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يُسْلِم قلبه لله عز وجل، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قلنا يا رسول الله وما بوائقه؟ قال ﷺ: غِشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عز وجل لا يمحو الحسن بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن»، وتأكيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ﴾ [هود: 11/ 114]، وقوله ﷺ: من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» صحيح الترمذي.

6. والمقصود أن قضية المراقبة مهمة جداً، وكلما ازداد الإيمان ازدادت المراقبة، فإذا حصل هذا نتج عنه خصلة أخرى وهي الاستزادة إلى يوم الرجوع إلى الله تعالى، لقد حصل عندنا الإيمان وحصلت عندنا المراقبة، إذاً لا بد من العمل. والعمل لا يكون مقبولاً إلا إذا كان خالصاً لله لا تشوبه شائبة. والعمل لا يكون صحيحاً إلا إذا كان موافقاً لفعله ومعتمداً على نهجه ومستنداً إلى ما أصَّلَهُ واستحسنه وحث عليه رسول الله ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» رواه البخاري.

ففي هذا الحديث فوائد جمَّة، أن الوليَّ هو المتقرب إلى الله بالطاعات والتقوى، وصاحب الإيمان الملتزم بشرع الله، والفائدة الثانية قوله تعالى: «وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه»؛ المعنى: أن العبد قائم بفروضه على أتمها من صلاة وزكاة وصوم وحج، ثم يزداد العبد من هذه الفرائض، وزيادته هذه تسمى نوافل، فأحب الأعمال إلى الله تعالى ما كان موافقاً لفرائضه، وما كان موافقاً لسنة نبيه الصحيحة صلى الله وسلم وبارك عليه، أما المبتدعة، فهؤلاء أعمالهم مردودة عليهم، وبقية الحديث تدل على أن من أتى بشيء من الطاعات الموافقة للفرائض ولسنة النبي ﷺ قابَلَه الله بها بالمحبة وبعلو المنزلة وباستجابة الدعوة، ولذا كان تمام الحديث: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» فالحمد لله على منّه وكرمه. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود: 11/ 114-115]، وعن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط بها عنك خطيئة» مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِبَاط» مسلم. (الوضوء على المكاره) أي: الوضوء مع البرد الشديد أو أي مكروه. و(الإسباغ) هو: استيفاء واستيعاب واستكمال أعضاء الغسل كاملة وتبليغها بالماء. وقوله: (فذلكم الرباط) أي: أن المواظبة على الطهارة، و(كثرة الخطا إلى المساجد)، وإلى فعل الخيرات والمكوث في المساجد في انتظار الصلاة، أو الجلوس بعد الصلاة لسماع الفوائد والمواعظ، أو إلقائها، أو إعطاء الدروس، أو تلاوة القرآن، أو للنصح والإرشاد، أو أمر بمعروف ونهي عن منكر... من يعمل كل هذا فهو كالجهاد في سبيل الله، كالمرابط على حدود الله، يرابط ويحافظ على أمن الدولة. وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «كل معروف صدقة» البخاري، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة» البخاري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه